العرب
الأحد 2020/11/01
السنة 43 العدد 11868

امرأة عجوز تحتجز شابا في الحمام لتروي له القصص

«أخف من الهواء».. رواية تفكك لغز الزمن والحياة والموت

يخطئ بعض الشعراء وأيضا من الروائيين بأنه عليهم كتابة نصوص مشحونة بالملاحم ومحملة بالقضايا المتراكمة فوق بعضها بعضا وباللغة المصقولة وغير ذلك من الحشد المعرفي والرمزي، كل ذلك لكتابة نص يحظى بالاهتمام والتقدير والانتشار ولمَ لا التتويج؟ وهذا تنفيه ببساطة الكثير من النصوص الأدبية التي اعتمدت على الموهبة والذكاء، فكانت سلسة بسيطة، نافذة ومؤثرة. وهو ما نجده في رواية "أخف من الهواء" للكاتب الأرجنتيني فيديريكو جانمير.

هيثم حسين
كاتب سوري

يحكي الأرجنتيني فيديريكو جانمير في روايته "أخف من الهواء" عن شاب في الرابعة عشرة من عمره يسطو على امرأة مسنة في الثالثة والتسعين. وقبل أن يتمكن الشاب من إتمام مهمته يتم سجنه في الحمام. ويترتب عليه أن يسمع قصة حياة تقترب من نهايتها. تحدثه العجوز وعليه أن يستمع لها بعد أن أقدم على محاولة سطوه الفاشلة.

من خلال طرح فلسفي يتناول جانمير في روايته، فكرتي الحياة والموت، ولعبة الزمن التي يرويها على لسان المرأة العجوز التي يفيض بها الحزن والوحشة لتضع حدا لحياتها بطريقة غريبة مثيرة.

القوة والضعف

يقلب الروائي مفهومي القوة والضعف، فالبطلة التي يفترض بها أنها عجوز ضعيفة تستلم زمام الأمور وتحتجز الفتى الذي يفترض أنه قوي ويظن أن بمقدوره التنكيل بها وسرقتها ببساطة، ويبدأ بالسرد على لسانها والتعبير عن فلسفة الحياة والموت، ولغز الوجود نفسه.

تترجى بطلة الرواية الشاب الذي يحاول سرقتها وتهديدها بالقتل أن يجلس فوق غطاء المرحاض، وتطلب منه ألا يحسب بأنها تجبره، بل تقول إنها تظن بأنه سيرتاح فوقه أكثر، وإنها ستجلب مقعدا وتضعه بجوار الباب، وستقص عليه أمرا ما، وتطلب منه ألا يزمجر، لأنه لن يكسب شيئا، تؤكد أن هناك حكاية ستقصها عليه، وترغب بشدة في البوح بها.

تطلب منه أن يتأدب ويصمت ويهدأ، وأن يتوقف عن الضرب على الباب كأبله، وأن ينصت بهدوء، ولن يضيره الإنصات، بل سيكون أفضل له، وأنها تعرف ما تقول، وأن الكبار هم نبع المعرفة. وتلفت إلى أن العمر يمرّ سريعا، وأن أي امرأة بمجرد أن تدرك أنها حية تجد فجأة أن ساعتها قد حانت.

تخبره أنها ستقص عليه حكاية بخصوص أمها ديليا، والتي تسميها دليتا، ويعجبها أنه بدأ ينصت إليها، وأنه يفهم، ويتركها تروي، وتشير إليه أنه ما زال شابا، وأنها متأكدة من أنه يعتقد أن الحياة أمامه بطولها وعرضها، بل امتداد لزمنها، وتلفت إلى أن هذه كذبة كبيرة مثلها مثل الزمن. وتخبره كذلك بحقيقة أنها وحيدة للغاية، وحيدة طوال أيام حياتها، لكنها تعتقد أن القصة يجب أن تهمّ الشاب الذي تحتجزه، وتخاطبه بأنه لا يزال يظن أن حياته كلها لا تزال أمامه، وأن هناك أمورا كثيرة قد يفعلها، وأن لديه مستقبلا ومصيرا، وترجو منه أن يدرك بأن كل ما لديه هو العدم ولا شيء سواه.

وتطلب منه أيضا أن يأخذ الأمور بصبر ويتقبل واقع أنها تحبسه في دورة المياه وتجبره على الإصغاء، وأن عليه أن يتقبل الأمر ويأخذه بصبر، لأن الصبر هو رأس كل الفضائل، وتتساءل عن فائدة القلق والإحباط، وضرورة تحاشيهما بشتى السبل. كما تسأله أن يهدأ، ويستعيد رشده، وألا يتوهم، حتى وإن صرخ أو ضرب الباب بأقصى ما لديه، فلن يسمعه سواها، وتؤكد له أنه في الطابق الأخير، ولا أحد يعيش في الأسفل منذ سنوات طويلة. وتقول له إنه لا طائل من الصراخ وضرب الباب وكأنه إنسان الغاب، وتشير إلى أنها لم تكن تتحدث عن هذا النوع من الضعف، لأن أي شخص يعرف أن الرجل أقوى من المرأة جسديا، وأن البهيمية التي أظهرها ليس لها أيّ فائدة سوى التعبير الكامل عن ضعفه أمامها.

وتنوه إلى أنّها تتحكم بالقصة، وأن هذا هو نوع الضعف الذي كانت تتحدث عنه، ضعف الشخصية، أو العجز المطلق الذي يبديه الذكور كلما اضطروا إلى مواجهة العالم، بصفة عامة أو أي امرأة بصفة خاصة. تتذكر أن المرأة لم تكن سوى مجرد حيوان منزلي مستأنس، ثقيل الظل لكنه ضروري من أجل تكاثر الفصيلة أو الحفاظ على ثروات الأقارب أو إرضاء أحط الرغبات الذكورية، أو ربما ضروري لشيء آخر لا تتذكره. وتتحدث عن تبدل الأزمنة والبشر فيها.

الهوس بالحكايات

تتحدى البطلة العجوز الفتى الطائش بالقول إنها إذا كانت قد اضطرت إلى خداعه وإخباره بأنها تحتفظ بكل أموالها في خزانة الحمام الصغير الملتصق بالمطبخ، فهذا بكل بساطة أنها رفضت التخلي له عما لديها من مال، وتسأله باستنكار لماذا عليها أن تعطيه مالها، هل لأنه كان قادرا على قتلها بالسكين الذي يحمله، أو بأيّ من ذاك الذي كان ينوي قتلها به. تحمّله الذنب، وأنه ارتكب أخطاء كثيرة وحماقة واحدة أساسية، وهي الاعتقاد بأن حياة أيِّ إنسان لها قيمة أكبر، أهو في عمر الثالثة والتسعين مثلها، أم وهو في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مثله، أو أقل؟

وتشير إلى أن الحياة لم تعد لها قيمة بالنسبة إليها. ولا فرق عندها إن هي ماتت بطعنة سكين في ظهرها أو بعد زمن لا تعرفه. وتصارحه بنوع من التشفي أنه لم يتمكن من قتلها أو سرقتها، وانتهى الحال أنها سرقت منه وقته.

تعرف نفسها أنها ليست عجوزا قذرة، وأنه مخطئ بتقديره وحكمه، وأنها مجرد امرأة كبيرة في السن ووحيدة، فجأة هجم عليها مجرم في الشارع، وداخل ظروف بائسة تمكنت من الدفاع عن نفسها قدر استطاعتها. وتبقيه داخل محبسه، لتمارس بعض طقوسها اليومية المعتادة وتستريح قليلا ثم تعود لاحقا. تحكي عن رغبة أمها القاتلة في الطيران، تلك الخطيئة التي دفعتها إلى أحضان رجل ليعلمها قيادة الطائرة، وبعد أن حصل منها على ما أراده، قالت له أمها إن رغبة المرأة أخف من الهواء، وتشير إلى أن أمها لم تكن تعرف أن ما بدر عن الرجل كان إيماءة جديدة أو أن وجهه لم يتغير، وتشك أنها لم تكن لتهتم بأي من الخيارين.

يلفت الروائي إلى أن الهوس بالحكايات هو ما يقود بطلته العجوز، ويفرض عليها إبقاء المعتدي عليها مسجونا، والتحدث معه وعنه في الوقت نفسه، وهو الحاضر الغائب، لا يملك من أمره شيئا، ولا يقوى على المعارضة أو الرفض، ولا حتى على عدم الاستماع.

تقول إن هناك غاية ما من وجود الخيال، وإن الحدس الأنثوي مثير للغرابة ومؤثر، وأن الحكاية أحد أشكال الحقيقة، وتخبره إن كان يظن بأنها لو تركته يحكي لها عن معاناته من الجوع، أو مدى قسوة والديه، أو المشقة التي ينظمون بها حياتهم ونومهم وهم ثلاثة عشر شخصا في الأسرة في مكان صغير بائس، سيكون ما يقوله حقيقيا.. تؤكد له أنه لن يكون كذلك، وأنه سيملأ الفراغات أيضا قدر استطاعته بخياله، أو أنه سيفعلها من دون أن يدري أنه يملأ ما يملؤه.

تصارحه أنها تنسى أنه يعجز عن سماعها، وأنها تتحدث في النهاية وحدها كمجنونة، وتستدرك أنها ستخبره بالحقيقة، وأنها دوما كانت تتحدث وحدها، تفكر بصوت مرتفع جدا، وأنها وحيدة طوال حياتها، حتى حينما كانت تعيش مع خالتها. تسر له أن الوحدة مؤلمة، وأن ألمها مختلف عن الألم المعتاد.

يكون مشهد النهاية قاسيا، تستحوذ عليها فكرة الموت، والقضاء عليه معها بالغاز، وتسرّ له كذلك أنها تظن أن الفكرة الوحيدة التي هيمنت على رأسها منذ بدأت تدرك فكرة الموت، الفكرة الوحيدة، الموت مرة واحدة وإلى الأبد، لكنها تظن أن الموت لا يمكن اعتباره تحت أي ظرف حلما، وأنها لم تتمكن حتى من الموت، ولم تحظ حتى بالحظ الكافي لتحقيق المسألة.

ونذكر أن رواية "أخف من الهواء" لفيديريكو جانمير حصلت سابقا على جائزة كلارين للرواية عام 2009، بينما صدرت في نسختها العربية عن منشورات دار مسعى – كندا، بترجمة محمد الفولي.

> فيديريكو جانمير قلب مفهومي القوة والضعف، فالبطلة العجوز الضعيفة تستلم زمام الأمور وتحتجز الفتى الذي يفترض أنه قوي

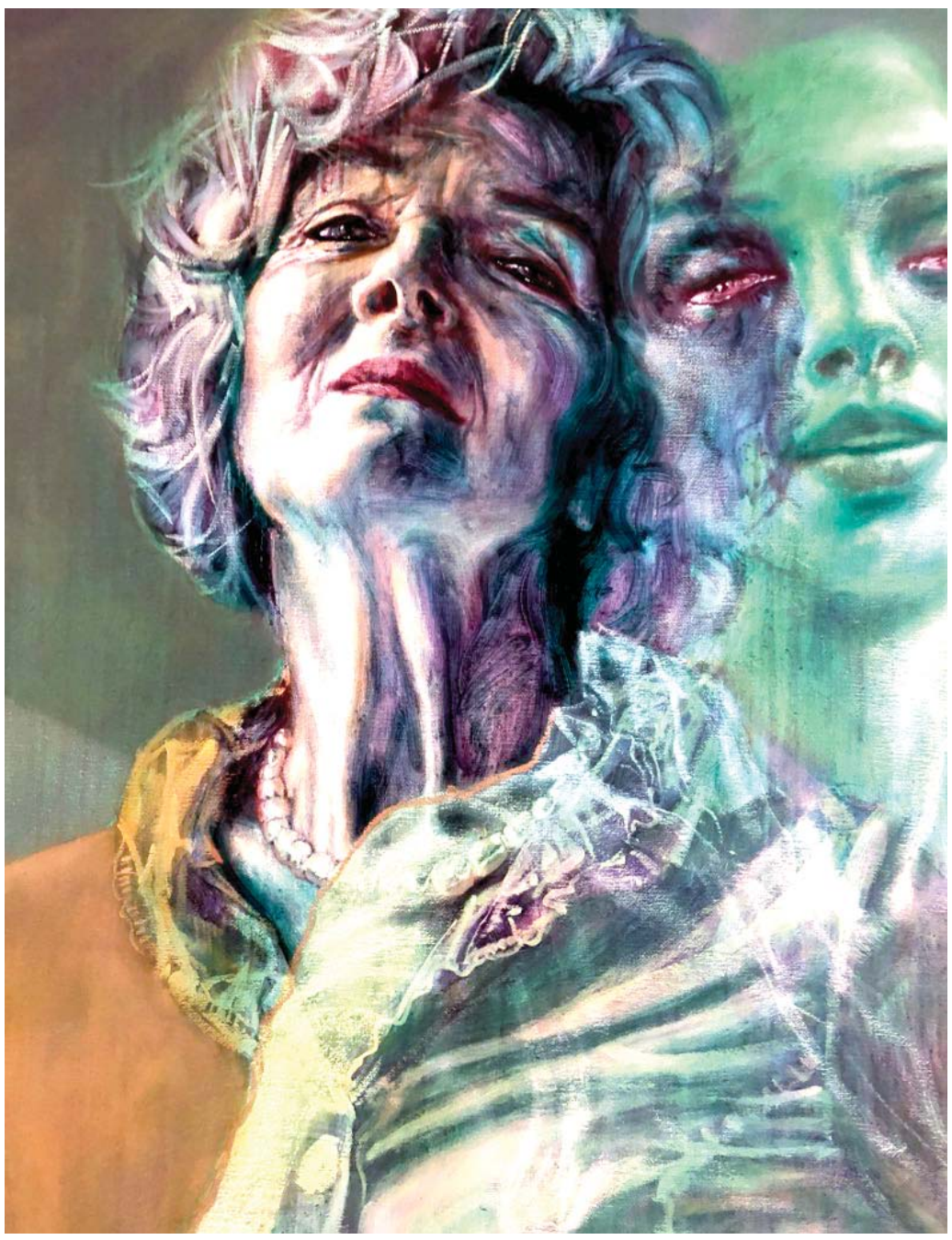

عجوز تتحكم بالحكاية (لوحة للفنانة سارة شمة)

لعبة تنتهي بمأساة

رف الكتب

أطلال شعرية جديدة

صدرت عن منشورات المتوسط – إيطاليا، المجموعة الشعرية الجديدة للمترجم والشاعر الفلسطيني سامر أبوهواش، وحملت عنوان "أطلال". والإصدار الجديد هو الكتاب الثاني للشاعر ضمن سلسلة براءات التي تصدرها المتوسط، بعد "ليس هكذا تصنع البيتزا" سنة 2017. تتكشف قصائد سامر أبوهواش، في هذه التجربة الجديدة، المنفصلة والمكملة في آن واحد لمشروعه الشعري، من خلال عتبة العنوان الذي جاء بخلاف جل عناوين أبوهواش السابقة، هكذا بكلمة تجمع بين ثناياها تاريخا من انهيار المشيد في الحياة، وتآكل جوانبه، وتحوله إلى: أطلال. فالشاعر له أطلاله، يرصدها على خلاف الشعراء القدامى، بكتابة داخلية مكثفة، تنزع إلى مجازات مقتصدة ولغة تميل إلى استنطاق الصمت، حيث مع كل سطر تشعر بالمرارة وأنت تسخر من هذا العالم. بينما تبقى الكتابة عنده فعل استمرار وجدال وإلحاح.

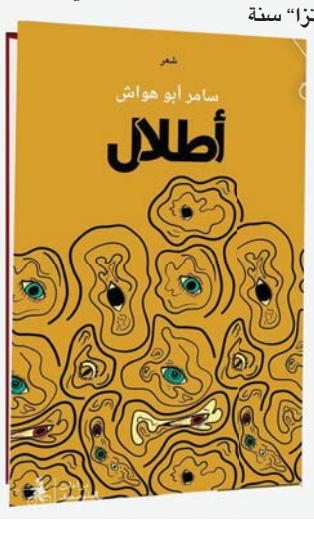

يوميات تشبه الحدس

+ في كتابه الجديد بعنوان «شذرات.. لا تعترف ببعضها» يدون الكاتب والناقد المغربي محمد أشويكة يومياته. ويبلورها كفكرة جمعها بعد أن تراكمت وصارت كلا متماسكا، وذلك ما جعل منها مادة أدبية وفكرية وثقافية وتأملية قابلة للتقاسم والمناقشة.

بالرغم من خلفيتها الذاتية، فإن هذه اليوميات، الصادرة حديثا عن دار خطوط وظلال بعمان، تستند في عمقها على التفكير في اللحظي والآني، وإن كان ماضيا فهو محكوم بلحظة التدوين اليومية، وبالمزاج العام لصاحبها، وكذلك بمدى قدرته على استنطاق اليومي، وما يجري حول الذات.

ليس بالضرورة أن تكون اليوميات عاكسة لسيرتنا الذاتية أو لمواقفنا وتموقعاتنا الأيديولوجية، وقد لا تهتم بالتأريخ لكل ما نقوم به أو لما يقع من حولنا، سواء كان قريبا أم بعيدا، بل هي انعكاس لبواطن الذات، وحدس للمستقبل وارتماء مغامر فيه.

أهازيج الست بدرية

أطلق بيت الذاكرة والتراث في مدينة الناصرة إصداره الأول بعنوان "حادية الوادي: من ميراث الأغاني الشعبية للست بدرية يونس"، من جمع وإعداد الباحثة فدوى يونس المهتمة بتوثيق وحفظ ميراث الأغاني الشعبية.

وقدم الكتاب البروفيسور والباحث مصطفى كبها، ووضع النوتة الموسيقية للألحان الدكتور محمد موسى خلف .

كان الناس في وادي عارة ينادون بدرية يونس "الست بدرية"، والتي كانت حادية كفيفة البصر، ألهبت مشاعر الجماهير بالأغاني الشعبية والوطنية، وكانت من أشهر الحدائين في وادي عارة. حيث كانت تردد الأغاني التراثية وتؤلف بنفسها أغان جديدة .

ونذكر أن بدرية يونس من مواليد قرية عارة الفلسطينية عام 1915، فقدت البصر في صغرها فبقيت قريبة من والدتها وخالاتها اللواتي كن يحفظن السور القرآنيه عن ظهر قلب. وساهم ذلك في نشأتها وتدربها على فن الأهازيج.